آياتها	سورة آل عمران	ترتيبها
٢٠٠	مدنية	٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝٤ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى بداية سورة البقرة ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ إقرار بوحدانية الله الحى الذى لا يموت، القائم بأمور الكون كله، يخلق ويقدر ويدبر ويصرِّف ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ أنزل عليك يا محمد القرآن حقًّا من عند الله، وبالحق من عند الله، مصدقًا لما قبله من كتب سماوية، بما فيها التوراة والزبور والإنجيل ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ فقد نزلت التوراة على موسى (ﷺ) والإنجيل على عيسى (ﷺ) ثم القرآن على محمد (ﷺ) وجميع الكتب السماوية نزلت لهداية الناس، واختلف المفسرون فى المقصود بالفرقان، فقال بعضهم: القرآن، وقال آخرون: إن المقصود هو الكتب الثلاثة، واختار الطبرى أن المقصود هو [القرآن، فرق بين الحق والباطل]، وقال المراغى: [هو العقل الذى يفرق بين الحق والباطل]، وتحتمل الكلمة كل ذلك وأكثر، فالكتب السماوية كلها هى من آيات الله، وأرسل الرسل ليبينوا للناس كتب الله، والكون كله بأحداثه الكبيرة والصغيرة من آيات الله، يرى فيها المؤمنون ـ بهداية الله وبهدى رسله ـ فرقانًا بين الحق والباطل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ فمن يكفر بآيات الله، ومنها الكتب السماوية، وآياته فى الكون، وفى نفسه، سيناله عذاب من العزيز ذى السلطان القادر على الانتقام.

* * *

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

الله يعلم غيب السماوات والأرض لا تخفى عليه خافية، حتى الأجنة فى بطون أمهاتها، فهو الذى يصورها كيف يشاء، سواء أكان ذكرًا أم أنثى، أسمر أم أبيض، مليحًا أم قبيحًا، قويًا أم ضعيفًا، لا إله إلا هو العزيز، واهب العزة والحكمة ومانعهما.

* * *

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾

تعددت أقوال المفسرين فى المحكم والمتشابه، وأجمل كثيرًا منها مخلوف قائلاً: [﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا اشتباه، ولا تحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصله الذى يعوّل عليه فى الأحكام ويُرجع إليه فى الحلال والحرام، ويُرَدُّ إليه ما تشابه من آياته وأشكل من معانيها ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ هى غير المحكمات، وهى ما استأثر الله بعلمه، كوقت الساعة، والروح، والحروف المقطعة فى أوائل السور، وإليه ذهب الحنفية. أو ما لا يتضح معناه إلا بالنظر الدقيق، وهو يشمل المجمل ونحوه، وإليه ذهب الشافعية. أو ما دل الدليل القاطع على أن ظاهره غير مراد، ولم يقم دليل على تعيين المراد منه، كآيات الصفات مثل الاستواء واليد والقدم والفوقية والنزول والرحمة والغضب، ونحو ذلك ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الاستقامة وانحراف عن الحق ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب فتنة المؤمنين عن دينهم ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب تأويل الكتاب وتحريفه، التأويل الباطل الذى يشتهونه، والتحريف السقيم الذى يقصدونه] ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ إن الذى يعرف تأويل هذه الآيات هو الله وحده، ومن تبحروا فى العلم وتثبتوا منه. هؤلاء الراسخون فى العلم نراهم يقولون آمنا بالمتشابه والمحكم، فالكل من عند الله، وإنه لحق وإن لم نعلم تأويله. وهناك من يقف على

قوله ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾، ثم يبدأ جملة جديدة ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وما يتذكر ذلك إلا أصحاب العقول الراجحة.

* * *

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

هذا هو دعاء المؤمنين المهديين، يدعون الله ألا يحجب هداه عنهم فتميل قلوبهم بعد إذ هداهم، ويطلبون الرحمة والتثبيت على الحق من الوهاب، جامع الناس ليوم الحساب.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

إن الكفار لن تنفعهم أموالهم وإن عظمت، ولا أولادهم وإن كثرت، فبسبب كفرهم بالله سيكونون وقود جهنم شأنهم شأن فرعون وأتباعه، والكفار من قبل كقوم نوح ولوط وعاد وثمود وغيرهم من الذين كذبوا بآيات الله، فأنزل الله بهم عقابه الشديد.

* * *

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

قل يا محمد للكفار إنهم سيغلبون وينهزمون في الدنيا، وفي الآخرة سيزج بهم في النار التي هي لهم بئس الفراش.

* * *

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

تعددت تفاسير الآية حسبما يرجع المفسر ضمير ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾ هل إلى المؤمنين أم إلى الكافرين؟ وقال الشوكاني: [وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم المؤمنون، فيكون المعنى: ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم في العدد، وقد كانوا (بالفعل) ثلاثة أمثالهم، فقلل الله المشركين في أعين المسلمين (إلى مثليهم فقط) لتقوى أنفسهم] وهذا التفسير يتفق مع

ما جاء فى الآية ٤٤ من سورة الأنفال ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ وما النصر إلا بتأييد الله ومشيئته، وفى ذلك عبرة لأصحاب العقول.

* * *

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾

جُبل الناس على حب الشهوات والملذات الدنيوية الفانية من النساء والأبناء، والاغترار بالكثرة والامتداد الذى يصنعه البنون، والذهب والفضة، والخيل الجميلة المعلمة، والأنعام؛ أى الإبل والبقر والمعز والضأن، والزرع؛ وما استجد بعد ذلك ويستجد مع كل عصر من وجوه الثروة المتنوعة، والحقيقة أن كل هذا إلى زوال، ولا يبقى ليوم الحساب إلا الأعمال، ثم الجزاء عليها عند رجوعهم إلى ربهم.

* * *

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) ﴾

قل يا محمد للناس أأخبركم بما هو أفضل من زينة الحياة الدنيا؟ جنات تجرى من تحتها الأنهار لا يزول نعيمها، وأزواج مطهرة من أى نقيصة أو عيب، كما سيتمتعون برضا الله عنهم، وهو نعيم وحده، والله بصير بعباده وبما يعملون.

* * *

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾

الذين يناجون ربهم قائلين ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ومن صفاتهم الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء، والصدق مع الله ومع النفس ومع الناس ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ العابدين الله فى خشوع، والذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، والذين يستغفرون ربهم وقت السحر، أى قبل طلوع الفجر فى الثلث الأخير من الليل، ومن يفعل ذلك، يستغفر أيضًا فى بقية يومه.

* * *

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾

شهد الله بوحدانيته، وأظهرتها لنا آياته فى الكون، وشهدت الملائكة التى تعبد الله، وشهد أيضًا أصحاب العلم من الناس أنه لا إله إلا الله، فلا حجة لأحد فى الإشراك بالله بعد ذلك، وشهدوا أيضًا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يقوم على شئون الكون بالحق والعدل، و﴿ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) ﴾

إن الدين الذى يقبله رب العزة ويرتضيه هو الإسلام؛ أى إسلام الوجه لله، وكما جاء فى سورة البقرة ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ قال المراغى: [خطب على ـ كرم الله وجهه ـ فقال: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل] ولم يختلف اليهود والنصارى، وفى تفسير آخر، علماء اليهود والنصارى؛ لأن العوام لايتبعونهم، فى الحق إلا بعد أن عرفوه ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ ظلمًا لأنفسهم بسعيهم وراء فتن الدنيا، من جاه وسلطان ونفوذ ومادة ومتع فانية، ومن يجحد آيات الله؛ فلا يظن أنه سيعجز الله عن معرفة أعماله وحسابه عليها، فالله سريع الحساب[1].

* * *

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴾

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ فإن جادلك أهل الكتاب فى وحدانية الله، فقل لهم يا محمد ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ وقل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن ليس له كتاب من

(١) عند بدء رسالة خاتم النبيين (ﷺ)، كانت البشرية فى ضلالة عن الذات الإلهية، سواء بسبب ما تراكم فى التراث اليهودى، أو المسيحى من أساطير لم يأت بها الأنبياء، أو الأساطير الآسيوية، وما انحط إليه تفكير العرب المشركين، ولذلك تجد فى كتب السيرة أن الصحابة يسألون الرسول (ﷺ): هل الله قريب أم بعيد؟ كيف يبعث الله الخلق كلهم يوم القيامة؟ وكيف يحاسبهم جميعًا؟، وكيف يستطيع أن يسجل كل أعمالهم جميعًا فى الدنيا؟.

العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، هل آمنتم بالإسلام؟ فإن أسلموا فهم من المهتدين الفائزين فى الدنيا والآخرة، وإن أداروا ظهورهم لدعوتك فلا تكلف نفسك إلا ما كلفك الله به من إبلاغ رسالته ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ يعلم كيف يعالجهم، وكيف يثيبهم أو يجازيهم.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) ﴾

إن الذين يجحدون آيات الله، ويقتلون أنبياءهم بغير حق، وهم اليهود[1]، ويقتلون كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأنذرهم بعذاب أليم، وبأن سعيهم فى الدنيا لن يفيدهم فى الدنيا ولا الآخرة، وليس لهم ناصر حقيقى من الله.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ﴾

استفهام استنكارى عن أحبار اليهود، أو اليهود عمومًا فى المدينة، وبصفة أعم عن كل من يفعل ذلك فى أى مكان وزمان، من الذين عرفوا جزءًا من كتابهم، ثم يعرض فريق منهم عن حكم الله فى كتابه.

* * *

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾

قال ابن جرير: [هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق فيما نازعوا رسول الله (ﷺ)، إنما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة وما فيها من الحق، من أجل قولهم ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ وهى أربعون يومًا عبدوا فيها العجل، اغترارًا منهم بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل فى ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه] ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ

(١) قال عيسى (ﷺ): يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء، وخاطب أحبار اليهود قائلاً: أيها الحيات أولاد الأفاعى.

فيه﴾ فما هو حالهم يوم الحساب، عندما يضع الله الموازين الحق ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة] وما قيل عن اليهود هنا، يُقال عن المسيحيين والمسلمين فى قبول كلٍّ منهم كتابه وعمله به أو إعراضه عنه.

قال محمد الغزالى: [والكلام وإن كان تقريعًا لليهود، ففيه إيماءة خفيفة إلى غيرهم من الأمم، فالله لن يعاقب أبناء إسرائيل إذا فسدوا ويترك أبناء إسماعيل إذا قلدوهم فى سيرتهم واقتفوا آثارهم].

* * *

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾

قل اللهم يامالك الملك، تجعل لمن تشاء من الملك ما تشاء، وتنزع الملك نزعًا ممن تشاء، وكيف تشاء، تهب العزة لمن تشاء كيف تشاء، وتلبس من تشاء لباس الذل كيف تشاء، الخير كله بيدك، وأمرك كن فيكون.

قال محمد الغزالى: [لقد استأثر اليهود بالوحى الإلهى أجيالاً متعاقبة، فظل فى جنسهم أحقابًا حتى زعموا أنهم أصحابه؛ وأنه يستحيل أن يتجاوزهم إلى غيرهم! ولم هذه الاستحالة؟ كل امرئ يفقد أهليته لمنصب ما يجب إبعاده عنه!! وقد صار اليهود آخر تاريخهم عاجزين تمام العجز عن الارتفاع إلى مستوى الوحى، فكان لا بد أن يصرف الوحى إلى جنس آخر قد يكون خيرًا منهم، وهذا سر قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أى يا محمد ناج ربك بيا مالك الملك والملكوت تمنح الملك لمن تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتلبس من تشاء لباس العز والتوفيق والنصر، وتلبس من تشاء لباس الذل والهوان، فأنت وحدك الذى تملك الخير، ولا يعجزك شىء عن تنفيذ إرادتك].

وقال الرازى: [قوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ محمول على جميع أنواع الملك، فيدخل فيه ملك النبوة، وملك العلم والعقل والصحة والأخلاق الحسنة، وملك النفاذ والقدرة والمحبة، وملك الأموال، وذلك لأن اللفظ عام، فالتخصيص من غير دليل لا يجوز].

* * *

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾

يا قادر يا قدير، تناوب بين الليل والنهار، وتدخل من الليل في النهار ما يزيد به النهار طولاً، وتدخل من النهار في الليل ما يزيد به الليل طولاً، ثم يتفاوتان على مدار فصول السنة شتاءً وربيعًا وصيفًا وخريفًا، وتخرج الحي من الميت، بإحياء الأرض الميتة بعد نزول المطر، وإخراج المؤمن من ظهر الكافر، وتخرج الميت من الحي، بإماتة الأرض الخضراء بمنع المطر عنها، أو بالآفات والأعاصير، وبولادة المؤمن للكافر ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فليطمئن المؤمنون إلى أن يد الله تحرك الكون، وتغيره حسب سننه، وعلى المؤمن أن يحمل أمانة التكليف قدر طاقته، طبقًا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وعليه أن يوقن بأن الرزق بيد الله، يُوسعه على من يشاء، ويُضيقه على من يشاء.

* * *

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

تحذر الآية من موالاة الكفار بدلاً من موالاة المؤمنين، وتبين أن من يفعل ذلك، فليس في فعله طاعة لله ولا إيمان به، ثم يجيء الاستثناء غير المتصل[1] ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ وهو شبيه بالنهي عن التعدي على أموال اليتيم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وكذلك بما جاء في سورة النبأ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ فالمقصود بهذا الاستثناء هو تقية تحمي في النهاية مقاصد الشريعة الخمسة التي بها يحافظ المؤمن على نفسه ودينه وعرضه ونسله وماله، ولا تصنع موالاة تضيع بها مقاصد الشريعة، وتنتهي الآية بتحذير المؤمنين من الله، فقدرة الله هي حصن المؤمن، وعقابه أشد من عقاب أقوى البشر. ويجدر التذكير هنا أنه في وقت نزول الآية والرسالة الخاتمة، لم يكن هناك قانون في بلاد العرب، فالقوي يأكل الضعيف، سواء على مستوى الأفراد، أو القبائل، والمال والدم مباحان لا يمنعهما إلا قوة الضحية وقوة حلفائها.

* * *

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

(١) أو الاستثناء المنقطع أو المنفصل، مثل أن يقال: ما اشتكى إلا خيرًا!.

قل يا محمد لهم إن تخفوا ما فى صدوركم، أو يظهر ذلك فى أفعالكم وأقوالكم، فإن الله عليم به، وبما فى السماوات وما فى الأرض، والله قادر على كل شىء، يوم ترى كل نفس أعمال الخير التى قدمتها، قلَّت أم كثرت، حاضرة شاهدة عليها، وما ارتكبته من سوء حاضراً شاهداً عليها، تود لو أن بينها وبينه بعد المشرق من المغرب، فيحذركم الله عقابه فى ذلك اليوم على الكفر والظلم وكافة أعمال السوء، وهو رؤوف بكم، فقد طبع فيكم فطرة الإيمان والخير، ووهبكم العقول والمدارك، ثم أرسل لكم الرسل يبشرونكم وينذرونكم، وأراكم آياته فى الكون وفى أنفسكم حتى تسلكوا سبل الهدى والرشاد.

* * *

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾

هاتان الآيتان تدلان على السبيل لحب الله وغفرانه ورحمته، ومكانة رسول الله (ﷺ) عند ربه ومكانته عند المؤمنين الصادقين، فإن من يتحدث عن حبه لله لا بد أولاً أن يطيعه ويتبع رسوله فى أقواله وأفعاله وتقريراته، عندئذ سينعم بالمغفرة والرحمة، ومن يعرض عن ذلك، فالله لا يحب الكافرين.

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) ﴾

اصطفى الله آدم أبا البشر، واصطفى نوحًا ومد فى عمره لما يقرب من ألف سنة، واصطفى إبراهيم أبا الأنبياء، فهو أبو إسماعيل ومن ذريته محمد، وأبو إسحاق ومن ذريته يعقوب ويوسف، وموسى وآل عمران، وامرأة عمران ولدت مريم التى أنجبت عيسى (عليهم أجمعين الصلاة والسلام)، وهم ذرية أنجب الأولون منهم الآخرين، وقال كثير من المفسرين ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾ بعضها متشعب من بعض، فى النسل أو فى الإيمان والعمل الصالح، أو فى كليهما، وبينت عدة آيات تعدد مقاماتهم العالية عند الله، ولكن أمرتنا الآية ـ نحن المسلمين ـ أن ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ وكذلك جاء الحديث «لا تفضلوا بين الأنبياء» رواه البخارى ومسلم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لدعواتهم وأعمالهم.

* * *

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

نذرت أم مريم البتول، التى ولدت عيسى (عليه السلام)، عندما كانت حاملاً ما فى بطنها لله ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مخلصًا لله، ورجت القبول من السميع لكلامها العليم بنيتها. وعند الوضع اكتشفت أنها ـ مريم ـ أنثى، فقالت معتذرة لله ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ ليس الذكر كالأنثى فى العمل فى سبيل الله ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ والله يعلم من الأزل أنها ستلد مريم التى ستلد عيسى (عليه السلام) ذا الشأن العظيم، ثم قالت ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ وإنى ألجأ بها وبذريتها إليك عائذين بك من إبليس اللعين ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ تقبلها الله بإحسان إلهى، وتولى رعايتها وصنعها على عينه قانتة مخبتة لله تعالى، وجعل زكريا (عليه السلام) زوج خالتها ووالد يحيى (عليه السلام) كافلاً لها ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ وكانت دائمة الصلاة فى محرابها، فتعجب من دوام الرزق لديها بطريقة غير مألوفة، وسألها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ كيف أتاك هذا الرزق؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

* * *

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾

﴿ هُنَالِكَ ﴾ وهو يعاين القدرة الإلهية فى رزق مريم ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ طالبًا القدرة الإلهية بالتدخل فى حاله، بأن تهبه ذرية طيبة، فالله نعم السميع المجيب، وعندما قام ليصلى فى المحراب نادته الملائكة وبشرته بولد اسمه يحيى ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ نقل أكثر المفسرين أن معناها مصدقًا بالمسيح عيسى ابن مريم[1] (عليه السلام)، وتحتمل ألفاظ الآية أن يكون مصدقًا

(١) يبدو فى هذا التفسير النقل من رواة أهل الكتاب.

بكتاب من الله، وهذا قاله مخلوف، وتحتمل أيضًا أن خلق يحيى (عليه السلام) جاء بكلمة من الله، تصديقًا على دعوة زكريا (عليه السلام) بأن يهبه الله ذرية طيبة ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ يسود قومه في الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَحَصُورًا ﴾ حاصرًا نفسه عن الشهوات والذنوب ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

* * *

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) ﴾

تساءل زكريا (عليه السلام) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ كيف يحدث هذا؟ ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ وقد تقدم سني وزوجتي عاقر لا تنجب، فأجابه الله ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ فهل هناك ما يمنع القدرة أو المشيئة الإلهية ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ أظهر لي علامة على هذه المعجزة ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ العلامة أنك ستجد نفسك عاجزًا عن الكلام باللسان ثلاثة أيام إلا بالإشارة والرمز، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال قليل منهم: إن الآية هي في تنفيذ زكريا أمر الله بعد الكلام إلا رمزًا ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ولا يغفل قلبك عن ذكر الله مساءً وصباحًا.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾

قالت الملائكة لمريم البتول إن الله اصطفاك بنذر أمك، وطهرك من شرور المعتقد الفاسد، ومن شرور العمل السيء، فاصطفاك بذلك لدرجة أعلى، فأصبحت مصطفية على نساء العالمين، وحملت رسولاً بدون أب لتكونا معجزة للعالمين، وفي المقابل ﴿ اقْنُتِي يَا مَرْيَمُ ﴾ اعبدي الله في خشوع ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾.

* * *

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾

كل هذه القصص قصصناها عليك يا محمد من أخبار الغيب الذى كنت لا تعرفه ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وما كنت معهم إذ يقترعون بأقلامهم على من يفوز بكفالة مريم ابنة عمران، وما كنت عندهم إذ يتخاصمون فى القرعة.

* * *

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨)﴾

اذكر يا محمد أن الملائكة بشرت مريم بكلمة من الله؛ أى عيسى ابن مريم (عليه السلام) له جاه ومكانة فى الدنيا والآخرة، وهل هناك أكثر من جاه الرسالة وإحياء الموتى بإذن الله والإتيان ببقية معجزات المسيح؟ ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى الله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾ من معجزاته أنه سيكلم الناس وهو وليد فى مهده، ، ويدعوهم إلى الله من مهده إلى كهولته، فاندهشت مريم وسألت ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فأجابها الله كما أجاب زكريا (عليه السلام) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ويُعلِّم هذا الوليد ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ ويعلمه الحكمة التى هى الإصابة فى تقدير الأمور وفى القول والعمل، وقال الشافعى: إنه حين تقرن بالقرآن، يكون المقصود بها السنة، ويمكن بهذا القول اعتبار الحكمة هنا سنة عيسى (عليه السلام)، ويعلمه التوراة التى نزلت على موسى (عليه السلام) والإنجيل الذى سينزل عليه، أما الكتاب، فكثير من التفاسير تقول إن المقصود به الكتابة، رغم أن هذا المعنى لا يوافق معنى لفظ الكتاب فى آيات عديدة فى القرآن، وقد يكون المقصود الكتاب المكنون فى سورة الواقعة الآية ٧٨، أو اللوح المحفوظ، ويكون المقصود جزءاً من الكتاب المكنون، والله أعلم.

* * *

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)﴾

هذا الوليد سيكون رسولاً إلى بنى إسرائيل، وسيقول لهم إنى قد أتيتكم بآية من ربكم؛ سأخلق لكم من الطين كصورة الطير وسأنفخ فيه ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأشفى ﴿الْأَكْمَهَ﴾ المولود أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ الذى فى بعض بشرته أو جلده بياض شديد ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتتم كل هذه المعجزات بإذن من الله تعالى ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وأخبركم بهذه الأمور الخاصة، وفى هذه الآيات دليل صدقى إن كنتم تؤمنون بالله.

* * *

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

وأرسلت إليكم مصدقًا ومثبتًا لشريعة موسى (عليه السلام) ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ لأبيح لكم بأمر من الله بعض الذى قد حرم عليكم فى التوراة ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وأتيتكم بالبينة التى تدل على صدقى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ بعد كل هذه الآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أعبدوا الله الواحد الأحد ربى وربكم[1].

* * *

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

لما وجد عيسى (عليه السلام) فيهم الإصرار على جحود رسالته، قال من منكم أعوانى على إقامة دين الله؟ فأجابه الحواريون، أى الناصرون والتابعون المخلصون لدين الله ورسوله عيسى (عليه السلام) قائلين: نحن أنصار الله، آمنا به، واشهد لنا بأننا مسلمون، ثم توجهوا لله فى مناجاة

(١) جاء فى إنجيل يوحنا أن يسوع قال: . . . . وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله ـ الإصحاح ٨: ٤٠.

وجاء أيضًا فى إنجيل يوحنا: قال (يسوع) . . . والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذى أرسلته: يسوع المسيح ـ ١٧: ٣.

وأجاب فى إنجيل متى عن الشاب الذى ناداه بالمعلم الصالح قائلاً: لماذا تدعونى صالحًا؟ واحد هو الصالح، الله ـ ١٩: ١٧ وفى طبعة الحياة، واضح أن هناك تغييرًا دخل على النص؛ إذ جاء كما يلى: وإذا شاب يتقدم إليه ويسأل: أيها المعلم الصالح، أى صلاح أعمل لأحصل على الحياة الأبدية؟ فأجابه: لماذا تسألنى عن الصالح؟ واحد هو الصالح، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاعمل بالوصايا. =

المؤمنين لربهم فى كل زمان ومكان: ربنا إننا آمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول الذى أرسلت، فأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ والذين مكروا هم اليهود وأحبارهم؛ إذ وشوا به عند حاكمهم وطالبوا بقتله، ولكن الله، وهو ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ رفعه إلى السماء.

والمكر هو التدبير الخفى الذى يلحق بالمكور به مالم يتوقعه، وقد يكون صالحًا، وقد يكون سيئًا.

* * *

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)﴾

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ قال الطبرى: [أولى الأقوال بالصحة عندنا: إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى]، وقال الزمخشرى: [(إنى) مستوفى أجلك. معناه إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك]، وقال المراغى: [وللعلماء فى تأويل هذه الآية رأيان:

(١) أن فيها تقديمًا وتأخيرًا، والأصل: إنى رافعك إلىّ ومتوفيك، أى إنى رافعك الآن ومميتك بعد النزول من السماء فى الحين الذى قدر لك ـ وعلى هذا فهو قد رفع حيًا بجسمه وروحه وأنه سينزل آخر الزمان، فيحكم بين الناس بشريعتنا، ثم يتوفاه الله.

(٢) أن الآية على ظاهرها، وأن التوفى هو الإماتة العادية، وأن الرفع بعده للروح ولا غرابة فى خطاب الشخص وإرادة روحه، فالروح هى حقيقة الإنسان، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير. والإنسان إنسان؛ لأن روحه هى هى]، والمعنى ـ إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى، كما قال فى إدريس (عليه السلام) ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مخلصك من مكر الكافرين وأقوالهم وصحبتهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ سأجعل من اتبعوك ظاهرين على الكافرين إلى يوم الدين، وذلك بمقاييس الحق الإلهية، وليس المقاييس الدنيوية ﴿ثُمَّ إِلَيَّ

= والسياق هكذا غير مستقيم، فالشاب لم يسأل عن الصالح، وإنما لقب المسيح بالمعلم الصالح، وفى ترجمات أخرى، ومنها الإنجليزية ـ (طبعة جدعون ـ Gideons)، أن إجابة المسيح كانت:

Why do you call me good? no one is good but one, that is God.

مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وجميعكم راجع إليَّ، وسأقضى بينكم فى كل ما تنازعتم فيه.

* * *

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾

أما الذين كفروا فلهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، ولا يغررك تقلب الذين كفروا فى البلاد، فعذابهم شديد فى الدنيا أيضًا، بالمقاييس الإلهية وليس بالمقاييس الدنيوية الزائفة، وكذلك عذابهم فى الآخرة، ولن يجدوا فيها من ينتصر لهم. وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات، فسوف يأخذون أجرهم كاملاً وزيادة، والله لا يحب الظالمين. كل ذلك نقصه عليك من آيات الله البينات، وذكرها الحكيم فى القرآن الكريم.

* * *

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾

خلق الله آدم من غير أم ولا أب؛ خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، كذلك خلق عيسى بغير أب وبكلمة كن فيكون، هذا هو القول الحق فلا تشك فيه.

* * *

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ(٦٣)﴾

فمن جادلك فى عيسى بعد ما أنزلته عليك من الآيات البينات فادعوه للمباهلة، وهى أن تجمع أعزة الأهل والأنفس القريبة منك ومنهم، ثم يبتهل كل فريق فى دعوة الله أن ينزل لعنته على الفريق الكاذب. وقد نزلت آية المباهلة فى وفد نصارى نجران الذى جادل الرسول (ﷺ)

فى أمر عيسى (ﷺ)، ثم رفضوا المباهلة[1] ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ إن قصة عيسى (ﷺ) هى ما أنزلنا عليك فى القرآن ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾.

* * *

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾

أمر الله رسوله أن يطلب منهم ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تعالوا إلى قول عدل وإنصاف لا يختلف عليه البشر الموحدون، وهو قول خال من الشرك ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ نجتمع على عبادة الله الواحد الأحد ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لأن فى ذلك الشرك بالله فسادًا عظيمًا فى الدنيا، حين تزعم فئة، كثرت أو قلت، أن الله أحدها، أو أنها أبناء الله، أو أنها شعبه المختار، فتزعم لنفسها أفضلية وحقوقًا أكثر من غيرها، وتسوغ لنفسها استباحة الآخر، ماله وأرضه وعمله وفكره، بل واستئصاله إذا لزم الأمر[2]، أو تزعم فئة مستعلية أخرى أنها أدرى بمصالح الناس من أنفسهم، وأدرى بكيفية تحقيقها، كما قال فرعون وأمثاله من الطواغيت ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فالتوحيد الخالص يجعل من كل البشر سواسية، يكبح ـ لدى الموحدين الصادقين ـ تكبر وتسلط أحد أو عرق أو فئة مستعلية أو طبقة على الآخرين ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا وانصرفوا عن كلمة السواء، فقل أنت والمسلمون معك نشهد بأنا مسلمون موحدون بالله.

* * *

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)﴾

راح كلٌّ من اليهود والنصارى يزعم أن إبراهيم (ﷺ) على دينه، رغم أن التوراة نزلت بعده بعقود، والإنجيل بعده بقرون، فوبخهم الله قائلاً: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لقد حاججتم فيما

(١) ذكرت كتب السيرة أن الرسول (ﷺ) جمع فاطمة وعليًا والحسن والحسين ليباهل بهم وفد نصارى نجران.

(٢) ناقش القس مايكل بريور فى كتابه «الكتاب المقدس والاستعمار» كيف وضعت فكرة الشعب المختار، وفكرة الأرض الموعودة الأساس الأيديولوجى لجرائم الاستعمار فى العالم الجديد أمريكا، وفى جنوب إفريقيا، وفى فلسطين، والكتاب ترجمته مكتبة الشروق الدولية.

علمتموه من نزول التوراة على موسى (ﷺ)، والإنجيل على عيسى (ﷺ)، فلماذا تجادلون فيما لا تعلمون ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾

نفى رب العزة عن إبراهيم أبى الأنبياء أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، بل كان ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن الشرك منصرفًا عن الأديان الباطلة، مُتبعًا الإسلام دين التوحيد الخالص، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب له هم الذين اتبعوه فى زمانه ﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ محمد (ﷺ) والذين آمنوا معه، فالله وليهم وناصرهم على أهل الكفر والشرك.

* * *

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴾

بيَّن كتاب الله نوايا طائفة من أهل الكتاب ودت أن تضلل المسلمين بما أرادوا أن يلقوا من الشبهات والشكوك، وبما يزرعون من الفرقة بين القلوب والعقول، والحقيقة أنهم يضلون أنفسهم ويحيق بهم مكرهم وهم غافلون، ومازالت تلك الطائفة، تعمل كل ما فى وسعها لتضليل المسلمين وتفريق وحدتهم وشملهم، فتارة تطعن فى الإسلام بأنه غير ديمقراطى، وتارة بأنه يظلم المرأة، وتارة بأنه دين عنف وإرهاب، وتارة بأنه دين عظيم، ولكن يجب ألا يتدخل فى الحياة العملية، سواء فى مجال السياسة أو التعليم أو التجارة والتمويل أو الثقافة والفن، ويردد بعضنا نوايا تلك الطائفة، وردًا على تلك المطاعن، وفى اختصار شديد نقول: ليس هناك نص واحد فى التوراة ولا الإنجيل يتحدث عن الديمقراطية أو الشورى، وفى القرآن هناك سورة باسم الشورى، وأمرت بها الآية ١٥٩ فى سورة آل عمران، وقد خضع الرسول (ﷺ) لرأى الأغلبية حتى فى خضم المعارك الحربية، فى أُحد، وفى يوم الأحزاب حين اجتمعت القبائل العربية وكثير من اليهود على قتل المسلمين واستئصالهم، وهو خاتم النبيين الذى يأتيه وحى السماء، وحياته كلها تجسيد للشورى، وقد اختار المسلمون من بعده حكامهم فى وقت لم يكن هناك فى العالم من يختار حكامه، واستمر العالم على ذلك أكثر

من عشرة قرون، وفى الحقيقة لم تعرف أوروبا الغربية ديمقراطيتها إلا من قرون قليلة، وعلى سبيل المثال، لم تعرف ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإسپانيا والبرتغال الديمقراطية إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين، والأخيرتان فى الربع الأخير منه، ولم تحصل المرأة على حق التصويت فى الولايات المتحدة إلا بعد الربع الأول من القرن العشرين، ولم يعرفه السود إلا فى الثلث الأخير من ذلك القرن، مع مضايقات وعوائق لدى فقرائهم حتى اليوم. ولم تبدأ النساء فى الحصول على حقوقهن المالية فى الولايات المتحدة من ناحية الميراث وما إلى ذلك إلا فى منتصف القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، والتهمة المكررة للإسلام بسماحه بتعدد الزوجات تنم عن جهل أو إغراض قائلها، فالإسلام هو الدين الإبراهيمى الوحيد الذى حدد عدد الزوجات، وسوف نفصل ذلك ـ بإذن الله ـ فى سورة النساء، أما تهمة العنف والإرهاب، فسنأتى على المزيد منها فيما بعد ونقارنها بآيات القتال، فى كلٍّ من العهد القديم، وسفر الرؤيا آخر أسفار العهد الجديد، وحربه النووية فى معركة هرمجدون والذى جعلت الصهيونية المسيحية واليهودية منه أخطر النصوص الدينية على الإطلاق؛ إذ تم تأويل تلك الرؤيا بأنها حرب نووية، لازمة حتى يجىء المسيح ثانيًا للعالم، وأن فى تلك الحرب، سوف يبلغ الدم ارتفاع ألجمة الخيل، ولمسافة بضع مئات من الكيلو مترات، ويموت فيها ثلث البشر، بالطبع من العرب والمسلمين الأشرار، حتى يهبط رسول السلام بسلام!!.

أما عزل الدين عن السياسة والتعليم والتجارة وعالم المال والتمويل والثقافة والفن، فذلك كمن يطلب وضعه فى متحف، ولا يقول به من فهم رسالة الإسلام، ونقول لمن يردد ذلك: ألم تسمع بدولة إسرائيل؛ هل تعرف لماذا قامت؟ ولماذا تقف وراءها بانحياز مطلق كلٌّ من الولايات المتحدة وأوروبا رغم أن مصالحهما الاقتصادية مع أكثر من مليار مسلم وأكثر من ثلاثمائة مليون عربى؟ هل تعرف دوافع رحلات كولومبس الاستكشافية للغرب؟ هل تعرف لماذا هاجر البيوريتانز إلى أمريكا؟ هل تعرف أن الولايات المتحدة، قديمًا وحديثًا، تعتبر أنها مكلفة برسالة إلهية، وأن سياستها الخارجية هى جزء من تلك الرسالة؟ هل تفهم ماذا يعنى الرؤساء الأمريكيون حين يتكلمون عن القيم المشتركة بين إسرائيل والولايات المتحدة[1]؟

(١) يمثل اليمين المسيحى فى أمريكا حوالى ٣٠٪ من عدد السكان، وله شبكات إعلامية هائلة، من قنوات تليفزيونية وإذاعية، لجامعات ومدارس، لدور نشر ومنتجى أفلام سينمائية وتليفزيونية، وله ممثلوه فى الكونجرس وفى المحكمة الدستورية العليا، ومنه جاء ريجان الذى حكم ثمان سنوات، وبوش الابن ثمان سنوات أخرى، ولم يكن بوش الأب بعيدًا عنه، وفرض اليمين أجندته على كلينتون، ويسعى لذلك مع أوباما.

ومنذ بدأت الحملات الاستعمارية فى القرن الثامن عشر فى إفريقيا والشرق الأوسط؛ بدأت الحملة لإخراج الإسلام من الحياة وحصره فى أضيق الحدود، مع محاولة تغييره ليتعايش تحت ظل المستعمر، واستمر ذلك حتى اليوم، وليس أمامنا ـ نحن المسلمين ـ إلا أن نتمسك بديننا، عقيدة وشريعة، وندرس تاريخنا وحاضرنا، وتاريخ العالم وحاضره بعيون نقدية فاحصة كاشفة.

نعود للنص القرآنى؛ حيث يوبخ الله ـ تعالى ـ الجاحدين المتكبرين من أهل الكتاب: لماذا تكفرون يا أهل الكتاب بالقرآن المنزل على محمد وأنتم تعلمون أنه الحق؟ لماذا تخلطون الحق الذى جاء فى التوراة والإنجيل بباطل من عند أنفسكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

***

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

يكشف القرآن ما يُسرُّه بعض أهل الكتاب لبعض حتى يفحم الكافرين وينبه المسلمين؛ إذ قالت طائفة من أهل الكتاب لإخوانهم ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أى أول النهار ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ فإذا جاء الليل اكفروا بالقرآن وبمحمد لعل بعض المسلمين يتابعونكم فيرجعون عن الإسلام مثلما رجعتم، وبمثل هذه الخدعة، يحاول البعض اليوم الإشادة ببعض أوجه القرآن والإسلام، حتى إذا انقلب على بقيته ودعا إلى إخراجه من الحياة إلى المتاحف، خدع بعض البسطاء بما يزعم من إنصافه وإخلاصه، ألم يقل فى الإسلام مشيدًا ومنصفًا كذا وكذا؟ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا قول طائفة أهل الكتاب لبعضهم البعض: لا تصدقوا أحدًا فى أمور الدين إلا إذا كان على دينكم، فكان رد الله ـ تعالى ـ لمحمد (ﷺ) ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ قل لهم يا محمد إن هداية الله تنزل على من يشاء من عباده، وهذه جملة اعتراضية ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ تكملة لكلام الطائفة التى تريد إضلال المسلمين، ومعناها خشية بعض أهل الكتاب أن يعرف أحد مثلما عرفوا ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أو يأخذونه حجة عليكم يوم القيامة أمام ربكم ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قل لهم يا محمد إن الفضل من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله

واسع العطاء عليم بمن يستحقه ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

* * *

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾

الآيات الثلاث توجب الأمانة والوفاء بالعهد، ودائمًا حين يتعرض القرآن لأهل الكتاب يشير إلى البعض وليس الكل، فيجب أن ننتبه لذلك ولا نعمم ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ تأمنه على مال كثير كبير ﴿ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ من غير أكل حقوق ولا مماطلة لتحليه بالأمانة ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ ومنهم من لا يؤده إليك إلا إذا كنت ملازمًا له مطالبًا بحقك قائمًا على رأسه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تلك الطائفة الخائنة تخدع نفسها بادعائها بأن الآخرين، غير المختارين، أو الأغيار حسب التعبير اليهودى، ليس لهم حقوق عندنا، فأولئك ﴿ الْأُمِّيِّينَ ﴾ المقصود هنا العرب والمسلمون، وعنى عموم الكلمة فى البداية من ليسوا من بنى إسرائيل، ثم أصبحت عند البعض من ليسوا مسيحيين، فحلال أكل أموالهم[1]، ويكذبون على الله فيقولون إن ذلك من تعاليم دينهم، ويعلمون أنهم يكذبون على الله، والله يرد عليهم قائلاً: ﴿ بَلَىٰ ﴾ نافيًا استحلالهم للآخرين ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾ الموفون بالعهد الذين يتقون غضب الله ويخشونه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أما الذين يستبدلون ما عاهدوا الله عليه من الوفاء بالعهد ورد الأمانات مقابل ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فكل متاع الدنيا مهما عظم هو قليل بالنسبة لمتاع الجنة والخلود فيها فى الآخرة، وهو أيضًا قليل فى الثمن الذى يدفعونه له من آخرتهم ﴿ أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أولئك ليس لهم حظ فى

(١) شكلت أسطورة شعب الله المختار عقلية وثقافة كثير من اليهود، ثم كثير من المسيحيين: الكاثوليك أولاً، ثم البروتستانت ثانيًا، وحللت لهم حقوق الآخرين، بل وثقافتهم وأرواحهم إذا لزم الأمر، ويشهد على ذلك استعمار أوروبا الغربية لثلثى العالم، حتى منتصف القرن العشرين، ثم السياسات الاستعمارية الجديدة من ذلك الوقت، وحتى اليوم.

الآخرة، فلا يتمتعون بكلام الله ولا نظره إليهم، ولا يطهرهم من ذنوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾

وإن من أهل الكتاب طائفة تميل ألسنتها عن الصحيح من الكتاب خداعًا لكم، لتحسبوه من الكتاب ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فهم يكذبون على الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يكذبون.

* * *

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾

ما جاز لمخلوق من البشر يؤتيه الله معرفة كتاب الله، ويهديه إلى حكمة الإصابة فى رؤية الأمور وتقديرها، والإصابة فى القول والعمل، ويصطفيه بالنبوة، أن ينسلخ عن كل ذلك، ويأمر الناس بعبادته من دون الله، ولكن يقول لهم: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ وجمع الطبرى أقوال المفسرين فى ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ كالتالى: حكماء علماء ـ فقهاء ـ ولاة الناس وقادتهم ـ الذين يربون الناس ـ عماد الناس فى الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، وقال سيبويه: الربانى المنسوب إلى الرب، بمعنى كونه عالمًا به، ومواظبًا على طاعته.

* * *

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾

أخذ الله ـ سبحانه ـ موثقًا عظيمًا على كل نبى، أنه بما آتاه من علم من كتاب وحكمة ثم جاء رسول بعده مصدقًا لما معه، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه، وجعل الله هذا عهدًا بينه

وبين كل نبى ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فمن نقض عهد الله، فأولئك هم العاصون المذنبون. يقول الله فى هذه الآية لأهل الكتاب الذين يرفضون محمدًا (ﷺ) بحجة التزامهم باتباع أنبيائهم، إن أنبياءه سلسلة واحدة يكمل أحدهم عمل من سبقه، وعلى كل نبى أن يؤمن بمن بعده، فلا تتحججوا بما تقولون، وخاصة بأن البشارات والإشارات لخاتم المرسلين لا تخفى على علمائكم وأحباركم.

* * *

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٨٣) ﴾

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ وهو استفهام توبيخى، بمعنى أفغير دين الإسلام يريدون ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ونقل الطبرى منها: [إسلام الكاره كان حين أخذ منه الميثاق فأقر به [الأعراف: ١٧٢]، وقال آخرون: أهل الإيمان أسلموا طوعًا، والكافر أسلم فى حال المعاينة (أى عند قيامته)، حين لا ينفعه إسلام، كرهًا، وأسلم حين رأى بأس الله]، ونحا الألوسى وجهة صوفية فقال: [الإسلام طوعًا هو الانقياد والامتثال لما أمر الله ـ تعالى ـ من غير معارضة ظلمة نفسانية وحيلولة حجب الأنانية، والإسلام كرهًا هو الانقياد مع توسط المعارضات والوساوس وحيلولة الحجب والتعلق بالوسائط] ولكن لا يشمل ذلك التفسير من كفر. أما الرازى، فقد قال: [فى خضوع كلٌّ من السموات والأرض لله وجوه، الأول، وهو الأصح عندى، أن كل ما سوى الله ـ سبحانه ـ ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده، ولا يعدم إلا بإعدامه، فإذن كل ما سوى الله هو منقاد خاضع لجلال الله فى طرفى وجوده وعدمه، وهذا هو نهاية (تمام) الانقياد والخضوع]، فكأنه يريد أن يقول الإسلام هنا ليس إسلام الوجه وهو محسن، وإنما هو إسلام الخضوع للخلق الإلهى، بالشكل الذى صوره الله، وبالأجهزة والأعضاء التى خلقها الله، وبالروح التى أودعها فى الجسد، . . . وكل ما إلى ذلك، انتهاء بالخضوع للأجل المحتوم الذى حدده الله لكل مخلوق.

ويمكن النظر لتلك الحقيقة بشكل آخر، فالذى يعصى الله على الأرض هم البشر، وبالطبع ليس كلهم، ولنأخذ أحد شرارهم: فرعون. خلق الله فرعون منذ بضعة آلاف من السنين، قبلها كان محكومًا عليه بالعدم، منذ الأزل، ثم استقرت نطفة أبيه فى رحم أمه،

ليولد، ويعيش بضعة عقود، ثم جاءه ملك الموت فى الأجل الذى قدره الله، فلم يستطع أن يطيل أجله، واستسلم لملك الموت، كما استسلم لطريقة خلقه، وسيظل فى الموت إلى يوم الحساب. إذًا ظهر هذا الفرعون المتكبر لعدة عقود فى حياة الأرض التى قد تكون عدة ملايين من السنين، ولنأخذ تلك الحياة ونتتبعها. فنجد أولاً أنه أمضى كطفل بضع سنوات عديم الحيلة، يتولاه أهله ومن يوكلونهم بذلك، وهو مستسلم لهم، ثم إذا بلغ أشده، وجدناه ينام رغمًا عنه ربع أو ثلث حياته، فإذا افترضنا أنه عاش ثمانين سنة، لوجدناه حر التصرف - فى حدود - فى مدة نحو أربعين سنة. فى تلك الأربعين سنة، سنجد أن أجهزته العضوية تتبع نظامًا محكمًا لا يستطيع فيه شيئًا، وربما لا يعرف عنه شيئًا. فجهازه التنفسى، وجهازه العصبى، وجهازه الهضمى، و.... و.... كلٌّ منها يعمل وفقًا للنظام المحكم الذى وضعه الله له، وهو حتى لا يستطيع أن ينام ويستيقظ إلا كما كتب الله له. لا يمكن لذلك المتكبر أن يحتفظ بطعامه فى داخله لأكثر من عدة ساعات، يضطر بعدها لقضاء حاجته. ولا يستطيع أن يأكل من الطعام الذى يحبه إلا قدرًا معينًا لا يزيد تبعًا لهواه، وقل ذلك على كل متعة. ثم نختم الحديث بشر فرعون، وما أدراك ما شر فرعون. قال رب العالمين وأصدق القائلين، وكرر فى كتابه الحكيم، إن الهداية والضلال بمشيئة الله، كذلك الرزق، وكذلك العزة، وكذلك الأجل، فما بيد الفرعون؟ إلحاق أذى الدنيا ببعض الناس! ولكن ألا يمكن أن يكون - حتى فى ذلك - يد الله لإنزال ذلك الأذى أو العقاب أو التنكيل، أو حتى القتل بمن قدر الله عليه ذلك؟ أو يكون يد الله ليرفع بها أحد المؤمنين العاملين؟ فقد يكون قتله لمؤمن، حتى يبلغ به الله درجة الشهادة، أو عقابًا من الله لمن أعان الفرعون، فيصبح بذلك عبرة للآخرين. وفى إلحاقه الأذى قد يكون مثل الخضر عندما خرق المركب حتى يمنع ذلك العيب سرقتها، أو عندما قتل الغلام الذى كان سيظلم والديه! وقد تنطبق على الفرعون آية الإسراء ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)﴾ بمعانى الآية وتأويلاتها الواسعة المتعددة - حفظنا الله جميعًا منها ومن شرور وتكبر وجحود وجهل المترفين - والتى هى فى النهاية فى حدود بشريتهم التى خلقهم الله عليها، والله أعلم.

* * *

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾

قل يا محمد أنت ومن معك من المسلمين، ومن يأتى بعدكم منهم، إنكم آمنتم ﴿بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وحى الله إلى رسوله محمد (ﷺ)، والذى أساسه القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين (ﷺ) ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ من كتب ووحى، والأسباط هم الأحفاد الاثنا عشر لإسحاق أو إبراهيم (عليهم جميعًا الصلاة والسلام) ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ الإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وما أنزل على سائر النبيين، لا نفرق فى الإيمان بين أحد منهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن لله منقادون.

يتمتع المسلمون من منطلق هذه الآية ومفهومها الأساسى فى الشريعة الإسلامية، بوضع متميز بين مختلف المؤمنين، فهم الوحيدون الذين يستطيعون أن يقولوا للمسيحيين ولليهود، نحن نؤمن بكتبكم وبأنبيائكم، ولا يقول ذلك اليهود للمسيحيين ولا للمسلمين، ولا يقوله المسيحيون للمسلمين، وتضع هذه الآية الأساس الراسخ الذى جعل المسلمين أكثر قبولاً للآخر من المسيحيين واليهود، طيلة تاريخهم وحتى اليوم، ورغم طوفان الأكاذيب والأضاليل التى يروج لها الساسة والإعلام الغربى، ورغم أن بعضنا يردد أصواتهم، جاهلاً، أو حالمًا، أو غانمًا.

***

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ومن يسع وراء دين غير الإسلام، فلن يقبل منه، وسيكون من الخاسرين فى الآخرة. فما المقصود بالإسلام؟ قال جمهور المفسرين: إن المقصود به الرسالة الخاتمة التى جاء بها محمد (ﷺ) خاتم النبيين. وقال قليل منهم: إن المقصود هو تسليم الوجه لله والتسليم بوحدانيته، وبيوم الحساب، فيدخل فى المسلمين الموحدون من المسيحيين واليهود وغيرهم، الذين لم يبلغهم الإسلام على وجهه الصحيح.

وفصَّل بعض المفسرين بأنه بعد بعث محمد (ﷺ) برسالته، صار المقصود الإسلام الذى أتى بشرائعه، فمن لم يعرفها، أو عرفها مشوهة محرفة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

وفى ذلك قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى كتاب «*فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة*» عن الذين لم تبلغهم دعوة محمد (ﷺ) للإسلام إنهم: [ثلاثة أصناف: صنف لم

يبلغهم اسم محمد (ﷺ) أصلاً، فهم معذورون. وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون. وصنف ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد (ﷺ) ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضًا منذ الصبا أن كذابًا ملبسًا اسمه محمد ادعى النبوة. . فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر والطلب].

* * *

﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾

يظهر من الآية أنها نزلت فى قوم آمنوا بمحمد (ﷺ)، وعرفوا الحق ثم جحدوه، فيقول الله عنهم إنه لا يهدى القوم الظالمين.

* * *

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) ﴾

أولئك الذين عرفوا الحق وجحدوه، يستحقون لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، إلا من تاب منهم توبة نصوحًا، وأصلح أعماله، فالله غفور رحيم. أما من جحد وازداد جحودًا، فلن يقبل الله توبته، وهو الذى يستحق وسمه بالضال.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١) ﴾

إن الذين استمروا فى كفرهم وماتوا على ضلالهم، لن يقبل الله منهم فى الآخرة أى فدية مهما عظمت. جاء فى الحديث «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك ما هو أهون

من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئًا، فأبيتَ إلا الشرك» متفق عليه. هؤلاء الكافرون ينتظرهم عذاب أليم، وليس لهم من ينصرهم.

* * *

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾

لن يقبل الله صدقة المتصدق إلا إذا كانت مما يحب وليست مما يكره فيستغنى عنها زاهداً فيها، وكلمة البر جامعة لكل صنوف الخير، فقال بعض المفسرين: لن تنالوا الخير من الله حتى تنفقوا مما تحبون وليس مما تزهدون، وقال آخرون: لن تبلغوا درجة البر وعمله حتى تنفقوا مما تحبون وليس مما تزهدون، والله عليم بإنفاقكم وبقدرتكم عليه.

* * *

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الرابع

سورة آل عمران

من الآية ٩٣ حتى نهايتها الآية ٢٠٠

وسورة النساء

من بدايتها حتى الآية ٢٣

obeikandl.com

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾

جادل اليهود النبى (ﷺ) فى قوله إنه على ملة إبراهيم (ﷺ)، فاحتجوا بأنه يأكل من الطعام ما كان محرمًا على إبراهيم (ﷺ)، وإسرائيل هو نبى الله يعقوب (ﷺ) وقد حرم على نفسه بعض الطعام، من قبل أن تنزل التوراة على موسى (ﷺ)، فأمر الله محمدًا أن يطلب من اليهود أن يخرجوا له نصًا فى التوراة يبين حرمة الحلال من طعام المسلمين على إبراهيم (ﷺ) فلم يجدوا، فأنذرتهم الآية من مغبة الكذب على الله، وأمرت الجميع باتباع ملة إبراهيم (ﷺ) التى هى مائلة عن سائر الملل المشركة الزائفة، ومستقيمة على التوحيد.

* * *

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾

أول بيت بنى لعبادة الله ـ تعالى ـ فى الأرض ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ وبكة من أسماء مكة ﴿ مُبَارَكًا ﴾ فعنده يغفر الله الذنوب والخطايا، ويجزل الثواب والعطايا ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فعنده بدأت الرسالة الخاتمة، وهو قبلة الناس فى صلاتهم، وإليه يحجون ويعتمرون ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ فهو القبلة التى تجمع للصلاة قلوب المسلمين من كل بقاع العالم، الأسود والأحمر والأصفر والأبيض، الغنى والفقير، الكبير والصغير، المرأة والشيخ، وإليه يعتمرون ويحجون مرتدين قطع قماش تستر عوراتهم، ويتماثلون فى كل شىء، فتتحقق عنده وبه، بلا قهر ولا إجبار، المساواة التى ينشدها العالم ولا يجدها، وعنده تتجلى الفيوضات والنفحات الربانية، ويقترب الحجاج والمعتمرون من الذات الإلهية ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ولهذا قام إبراهيم (ﷺ) ببنائه، وقال كثير من التفاسير إن المقصود المكان الذى قام إبراهيم (ﷺ)

عليه بجوار الكعبة وهو يبنيها، ولأهل الباطن أن يقولوا إن المقصود بـ ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قيام إبراهيم بالدعوة للتوحيد وعبادة الله ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ على نفسه من عدوان الآخرين ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أما من كفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

* * *

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

تأمر الآيتان محمدًا (ﷺ) أن يتوجه بالسؤالين الاستنكاريين لأهل الكتاب: لماذا تكفرون بآيات الله والله شهيد عليكم؟ يا أهل الكتاب لماذا تضلون عن طريق الله المستقيم من آمن وتدفعونه إلى الطريق المعوج وأنتم تعرفون ذلك، والله ليس بغافل عما تفعلون؟.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بحسن ظنكم في هذا الفريق، أو رغبة في التودد والتقرب منه لتحقيق منفعة أو مكسب، أو يكون بينكم منافقون يقولون ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] أي يخشون أن ينهزم المسلمون ويتعرضوا معهم للخطر، فإذا أطعتم ذلك الفريق من أهل الكتاب ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ بخداعكم وتضليلكم، فتبتعدون خطوة خطوة عن الإيمان حتى تنحطوا إلى الكفر ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وكيف تكفرون والقرآن يتنزل على رسولكم، ويتلوه عليكم، ويعمل بهديه آناء الليل وأطراف النهار، وبالنسبة لأجيال المسلمين بعد الرسول (ﷺ)، لديهم ولدينا القرآن الذي أنزل عليه، ولديهم ولدينا سنته مسجلة، ولديهم ولدينا ما كشفته الحياة والتاريخ عن صدق ما أخبر به القرآن عند نزوله، وسيستمر ذلك الكشف حتى يوم الحساب ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ ومن يلجأ إلى الله ويستمسك بدينه ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

﴿آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اتقوا الشرك وعصيان الله حق التقوى، وقال عبد الله بن مسعود فى معنى ذلك: يُطاع (الله) فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، وروى ذلك مرفوعًا ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ واحرصوا واعملوا على أن تلقوا ربكم وأنتم على دين الإسلام، قولاً وعملاً.

* * *

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾

اعتصموا جميعًا بهدى الله، واتحدوا ولا تتفرقوا ولا تتنازعوا، واذكروا أن الله وحده ألّف بين قلوبكم، ولو اتبعتم غيره لعدتم للفرقة والتشتت، ولحفرة النار التى كنتم على وشك السقوط فيها.

ما أحوج جميع المسلمين اليوم للعمل بهذه الآية، وليس مجرد تلاوتها فتكون شاهدة علينا وليست شاهدة لنا، وقد أصبحنا أعداء بعضنا البعض، قلوبنا شتى، وعلى شفا حفرة من النار، ولن ينقذنا من كل ذلك إلا اعتصامنا جميعًا بالله.

* * *

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾

ليس من المطلوب ولا من الممكن أن يتحول جميع المسلمين إلى متخصصين متفرغين للدعوة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لكن لا بد من العمل على أن تكون هناك ﴿أُمَّةٌ﴾ تقوم بذلك، وهذه الجماعة لا بد أن تعكف على العلم، وأن تكون مستقلة فى تكوينها وعملها وتمويلها عن الحاكم، وأن تتمتع بحصانة من بطشه ومن إغراءاته، كما يُفترض تمتع ممثلى الشعوب بحصانة من بطش السلطة التنفيذية ومن إغراءاتها، فإذا قام أعضاؤها بدورهم الذى أراده الله منهم أصبحوا ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وإياكم والفرقة

والاختلاف كما كان من أمم كثيرة من قبلكم، تفرقوا واختلفوا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والذين يفعلون ذلك يستحقون إنذار الآية بأن ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾

في يوم الحساب، ستبيض وجوه المؤمنين بعملهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة، وستسود وجوه الكفار جزاء ظلمهم؛ فقد أرسل الله الأنبياء وأنزل الكتب السماوية لهداية البشر، وقبل ذلك أخذ شهادتهم كما بينت آية الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ وكذلك بينت الآية الستون من سورة ياسين ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فبعد أن آمنوا، انقلبوا على أعقابهم كافرين، هذه الآيات نتلوها عليك يا محمد بالحق، واعلم أن ربك ليس بظلام للعبيد، وهو مالك الملك، وإليه يرجع الأمر كله.

* * *

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾

ربط مالك الملك أفضلية هذه الأمة على بقية الناس بعدة شروط، منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، فمن آمن بالله وأراد استرجاع تلك الأفضلية، فعليه استرجاع تلك الشروط الثلاثة، وفصلت الشريعة وجوه المعروف ووجوه المنكر، وشرطت العمل تصديقًا للإيمان، فالإيمان قول يصدقه عمل.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو بمثابة الضمير الحي الذي يرشد للخير ويمنع الشر، على مستوى الفرد والأسرة والجماعة، والشركة والمؤسسة، وعلى مستوى المجتمع ككل، ودوره هو دور فعَّال للرأي العام، وهو مع مؤسسة الأوقاف الإسلامية يقومان بدور مؤسسات المجتمع المدني التي تضبط عجلة الحياة، ويشبه في جزء من مفهومه ما يسمونه في العلوم السياسة مفهوم التدقيق والتصحيح.

فما هو المعروف الذى يريد الإسلام من أتباعه أن يأمروا به؟ تنبع كل أوجه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من نبع التوحيد الصافى، الذى فيه إله واحد، خلق الناس جميعًا سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، فليس هناك شعب مختار، ولا عرق أعلى وأنقى، ولا جنس سائد مستبد، وسيبعث الله الناس جميعًا ليوم الحساب، وفيه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾، و﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وبعض وجوه المعروف الذى تشيد به الآية هو: طلب العلم، فهو فريضة على كل مسلم - والسعى وراء الرزق حتى يكفل لنفسه وعائلته الحياة الكريمة - والصدق فى الحديث - والوفاء بالوعود والعقود وبر الوالدين وخاصة الأم، وإحسان العشرة الزوجية؛ فجاء فى الحديث «خيركم خيركم لأهله» رواه الترمذى وابن ماجه، وصلة الأقارب، وصلة الجار؛ وجاء النهى عن إدخال المنزل ما لذ من الطعام والشراب أمام أعين الجار المحروم إلا أن ينال نصيبًا من ذلك - وإكرام الضيف - وجاء فى الحديث «خير الناس أنفعهم للناس» رواه الطبرانى، و «لا يكتمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، و «الدين النصيحة لله ولرسوله ولعامة المؤمنين» رواه البخارى ومسلم، و «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» رواه البخارى ومسلم، و «المسلمون كرجل واحد» رواه مسلم - وتشاور المسلمين فى أمورهم، فلا يستبد بها أحد - وإنفاق الأموال فى كل أوجه الخير؛ وجاء فى الحديث «ما نقص مال من صدقة» رواه الترمذى - والسعى وراء أسباب القوة «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» رواه مسلم، «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه الطبرانى - والرحمة حتى بالحيوان؛ فجاء فى الحديث «أن رجلاً دخل الجنة لأنه سقى كلبًا عطشانًا» رواه مالك، و «أن امرأة دخلت النار لأنها حبست قطة، فمنعتها الأكل والشرب» رواه البخارى ومسلم.

وبعض وجوه المنكر الذى تنهى عنه الآية هو: عقوق الوالدين - سوء المعاشرة الزوجية - قطع الأرحام - الإساءة للجار - عدم الاكتراث لأحوال المسلمين؛ فجاء فى الحديث «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم» رواه الحاكم - الكذب، وقول الزور، وقرن القرآن، ومن ثم الحديث قول الزور بالإشراك بالله - الغش؛ فجاء فى الحديث «من غشنا فليس منا» رواه مسلم، والغش قد يكون فى البيع والشراء، وقد يكون فى الزواج، وقد يكون فى الانتخابات - الاستبداد بأمور المسلمين وتعطيل الشورى - الاحتكار، ولعنه الله على لسان رسوله (ﷺ) - التجسس على عورات الناس - الرشوة - النفاق، وهبط القرآن بالمنافقين إلى الدرك الأسفل

من النار ـ السلبية ـ اكتناز الأموال ـ التكبر والتفاخر على الناس ـ إضاعة الوقت والمال والصحة ـ لغو الكلام الذى لا طائل من ورائه ـ الغيبة والنميمة ـ تدخل المرء فيما لا يعنيه.

وهل يمكن أن تكون هناك أمة أكثر خيراً من أمة تلتزم بهذه العقيدة والشريعة؟ أين هى؟ نظريًا، أى فى أى نصوص؟ وعمليًا أى فى أى تاريخ قديم أو معاصر؟ ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ ولكن آمن البعض، وإن كانت الكثرة فاسقة أى عاصية.

* * *

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ ذلك الفريق من أهل الكتاب لن يبلغ فى ضركم إلا أذى الدنيا، فلن يستطيعوا أن يردوكم عن دينكم الحق ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ وإن يقاتلوكم، فإن الله ناصركم ما دمتم تنصرون الله وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، عندئذ ستهزمونهم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الصغار والهوان ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أينما حلوا أو ارتحلوا[1] ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ إلا فى حال اعتصامهم بالله أو احتمائهم بعهد مع الناس ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ واستوجبوا غضب الله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أى أحاطت بهم المسكنة والمهانة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قال يحيى (عليه السلام)، وقال المسيح (عليه السلام) فى الإنجيل: يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء، ولقبا أحبار اليهود باسم الحيات أولاد الأفاعى[2] ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ فقد عصوا الله ورسله،

---

(١) كتب ثيودور هيرتزل ـ مؤسس دولة اليهود ـ كتابه الشهير *الدولة اليهودية* فى نهاية القرن التاسع عشر، كرر فيه أكثر من عشر مرات القول بأن اليهود أينما ذهبوا كرههم الناس وقمعوهم وظلموهم وصادروا أموالهم وممتلكاتهم، ويشتكى اليهود فى كل زمان ومكان من كراهية الناس لهم.

(٢) يقص العهد القديم من الكتاب المقدس الانحراف المستمر لليهود عن عبادة الله، بدءًا من عبادتهم العجل أثناء غياب موسى (عليه السلام)، وحتى آخر أسفار العهد القديم ملاخى فيقول للكهنة: . . . ولكنكم انحرفتم عن الطريق المستقيم وأعثرتم بتعاليمكم كثيرين، ونقضتم عهدى . . . يقول الرب القدير لذلك أحقركم وأذلكم أمام جميع الناس لأنكم لم تطيعوا طرقى وحابيتم فى تطبيق شريعتى ٢ : ٨-٩.
وجاء فى إنجيل متى: الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون . . فإنكم تغلقون ملكوت السماوات فى وجوه الناس، فلا أنتم تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون . . أيها القادة العميان إنكم تصفون الماء من البعوضة ولكنكم تبلعون الجمل . . . أيها الحيات أولاد الأفاعى، كيف تفلتون من عقاب جهنم؟ ٢٣ : ١٣-٣٣.

وقصص عصيانهم تملأ العهد القديم من الكتاب المقدس من أوله إلى آخره، وختموا ذلك بمحاولاتهم قتل المسيح، ثم قتل محمد (ﷺ) ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ على شرائع الله وحقوق البشر، خاصة الأغيار، ولا يكفون عن العدوان على خلق الله وحدوده، بسبب اعتبارهم أنفسهم شعب الله المختار، بصرف النظر عن كونهم مؤمنين أو ملحدين، صالحين أو فاسدين، وبسبب نظرتهم الشاذة لله ولأنفسهم، وحتى اليوم.

* * *

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾

ليس كل أهل الكتاب كذلك، فمنهم أمة قائمة على الدين الحق، تتلو آيات الله وتعمل بها، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتسارع بعمل الخير، وتلك الأمة الصالحة لن يضيع ثوابها عند الله العليم بالمتقين. ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قاعدة أساسية يجب أن يتنبه لها المسلمون ويعملوا بها، فمن اليهود ومن المسيحيين أمة قائمة على شرع الله تسلك سبل ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾

أما الذين كفروا فلن ﴿تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ فبكفرهم سيبقون في نار جهنم يصلونها خالدين ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أما ما أنفقوه في الدنيا نفاقًا ورياءً وصدًّا عن سبيل الله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ فهو كمثل ريح شديدة البرودة تهلك زرع ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حين كفروا بالله ورسوله، وهذا الهلاك هو جزاؤهم العادل من الله الذي لا يظلم عباده ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والمفارقة هنا أنه بدلاً من أن يأتي الإنفاق بالخير عليهم، أتى بالشر، كما أنه بدلاً من أن تأتي الريح بالمطر الذي يُنمي الزرع ويحيي الأرض بعد موتها، أتت ببرد شديد أهلك الزرع.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾

هذا أمر من الله للمؤمنين بألا يتخذوا أصفياء ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ من المنافقين من المسلمين، أو منهم ومن غيرهم ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ لا يقصرون فى جعلكم فى حالة خبال، أى اضطراب وتشويش ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ أرادوا لكم العنت، وهو المشقة والضرر ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ بدت الكراهية والأحقاد من فلتات ألسنتهم ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ويبطنون فى أعماق قلوبهم أسوأ ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ جدير بكم بعد أن أفهمناكم أن تحترسوا وتتعظوا إن كنتم تعقلون.

* * *

﴿ هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) ﴾

﴿ هَا أَنتُمْ ﴾ أيها المؤمنون الذين تترددون إلى المنافقين وتظهرون الحب لهم لهدف دنيوى زائل فى الوقت الذى لا يحبونكم لأنكم تؤمنون ﴿ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ المقصود بالكتاب إما القرآن، وإما كل الكتب السماوية التى ذكرها القرآن، بما فيها التوراة والزبور والإنجيل، فإذا كانت البطانة التى نهت الآية السابقة عنها من منافقى المسلمين، فالأقرب أن يكون المقصود بالكتاب القرآن، أما إذا كانت البطانة من منافقى أهل الكتاب، فالأقرب أن يكون المقصود بالكتاب كل الكتب المنزلة ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ كلما التقوا بكم أعلنوا إيمانهم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا ﴾ انفردوا بأنفسهم ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أعلنوا فيما بينهم عن شدة حسرتهم وحقدهم عليكم ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ لن نخرج من نور الإيمان إلى ظلمات الطاغوت لنرضيكم، فإما أن تؤمنوا مثلنا، أو تتركونا فى سلام، دون أن تقاتلونا أو تحاولوا فتنتنا والتشكيك فى ديننا، أو تستمروا على غيظكم منا حتى تموتوا به ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

* * *

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾

إن أصابكم خير استاؤوا، وإن أصابكم شر فرحوا ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ وإن تصبروا عليهم، وتتقوا الله، لن يضركم مكرهم، ويكفيكم أن الله بما يعملون محيط، ولن يعجزه ردهم عنكم.

* * *

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾

ذلك فى معركة أحد، حين جاءت قريش لاستئصال الإسلام والمسلمين، واستمع رسول الله (ﷺ)، الذى يأتيه الوحى من السماء، إلى رأى أغلبية المسلمين، وخرج إلى جبل أحد بدلاً من البقاء داخل المدينة[1].

وإذا خرجت أول النهار متجهًا إلى جبل أحد لترتب المقاتلين لمواجهة قريش، والله سميع لكل ما تقولون، عليم بما تفعلون؛ إذ همَّ بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أن ترجعا مع المنافقين إلى المدينة، ولكن عصمهما الله وليهما من تلك الفتنة، واجتهدتا فى قتال العدو إلى نهاية المعركة، وعلى المؤمن أن يتوكل على الله فى كل أعماله، ويعمل ويسعى قدر المستطاع، وعلى الله إتمام المقاصد.

* * *

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾

---

(١) ومثل ذلك حدث يوم الأحزاب الذين جاءوا لاستئصال الإسلام والمسلمين، حين اجتمعت أحزاب العرب واليهود على ذلك، فأراد الرسول (ﷺ)، الذى يأتيه الوحى من السماء، أن يرد قبائل غطفان بأن يعطيهم جزءاً من ثمار المدينة، وبدأ التفاوض مع زعماء غطفان على ذلك، ثم أخبر سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة، وهما زعيما الأنصار، فرفضا إعطاء غطفان أى شىء، فقطع الرسول (ﷺ) مفاوضاته نزولاً على رأى السعدين. وكانت عائشة تقول: لم يكن هناك من هو أكثر استشارة لأصحابه من محمد (ﷺ).

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ وتذكروا أن الله نصركم فى موقعة بدر، وهى المعركة الأولى بعد الهجرة فى السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ بسبب قلة عددكم وعدتكم، فلقد كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان الكفار حوالى ألف رجل، مع ذلك نصركم الله لعلكم تتذكرون فتشكروا الله وتحمدوه ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يا محمد ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ ألن يكفيكم أن الله سينزل عليكم ثلاثة آلاف ملك يبشرونكم ويطمئنون قلوبكم؟ ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ وما جعل الله الإمداد بالملائكة المُعلَّمين إلا ليبشركم ويطمئن قلوبكم، ولا بد من اليقين بأن النصر لا يكون إلا من عند الله العزيز الذى لا يغلب، الحكيم فى جميع أفعاله ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ليهلك طائفة من الكفار ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ﴿ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ فيرجعوا مهزومين مدحورين ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ليس لك يا محمد فى أمر الكفار شىء، يخزيهم الله أو يتوب عليهم أو يعذبهم بظلمهم، والأمر من قبل ومن بعد فى السماوات وفى الأرض لله، إن شاء غفر وإن شاء عذب، وقد تعددت أقوال المفسرين فى سبب نزول الآية ١٢٨، فمنهم من قال: نزلت بعد أن قال الرسول (ﷺ) بعد أُحد: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم؟» وقال آخرون: بعد أن دعا الله ليلعن أفرادًا أو أقوامًا، وقالت طائفة ثالثة: إنه همَّ بالدعاء عليهم فنزلت الآية ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

كذلك تعددت أقوال المفسرين فى مسألة الملائكة، فمنهم من قال ﴿ مِن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ تعنى المدد الذى كان سيرسله كرز بن جابر يوم بدر للمشركين ولم يرسله، وقال آخرون: بل المقصود قوات قريش التى أتت يوم أُحد، وهل الآيات من ١٢٤ إلى ١٢٧ نزلت عن موقعة بدر أم موقعة أُحد؟ قال الطبرى: [وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبَر عن نبيه محمد (ﷺ) أنه قال للمؤمنين: ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف، بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله. ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدُّوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم. وقد يجوز أن يكون الله ـ عز وجل ـ أمدهم، على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك. ولا خبر عندنا صحَّ من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة

الآلاف ولا بالخمسة الآلاف. وغير جائز أن يقال فى ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم الحجة به. ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله. غير أنّ فى القرآن دلالةً على أنهم قد أُمدوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] (ومردفين تعنى متتابعين) فأما فى يوم أُحد، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبينُ منها فى أنهم أُمدوا. وذلك أنهم لو أُمدوا لم يهزموا، ويُنالَ ما نيل منهم] وخلاصة كلام الطبرى أنه لم يحدث إمداد بالملائكة يوم أُحد، وليس هناك دلالة واضحة على أنه تم إمداد المسلمين بثلاثة آلاف أو خمسة آلاف من الملائكة يوم بدر، وليس هناك أيضًا دلالة واضحة على عدم الإمداد، وهناك دلالة على إمدادهم بألف من الملائكة يوم بدر، طبقًا لما جاء فى سورة الأنفال ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، أما الزمخشرى، فقد اعتبر أن الآيات من ١٢٤ إلى ١٢٧ عن معركة أُحد، وقال: [. . فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا؛ حيث خالفوا أمر رسول الله (ﷺ) فلذلك لم تنزل الملائكة]، وبمثل ذلك قال البيضاوى. وقال المراغى: [وربما سأل سائل عن الفارق بين اليومين، فقال: لمَ أمدَّ الله المؤمنين يوم بدر بملائكة يثبتون قلوبهم، وحرمهم من ذلك يوم أحد حتى أصاب العدو منهم ما أصاب؟! وجوابنا عن هذا أن المؤمنين كانوا يوم بدر فى قلة وذلة من الضعف والحاجة، فلم يكن لهم اعتماد إلا على الله، وما وهبهم من قوة فى أبدانهم ونفوسهم، وما أمرهم به من الثبات والذكر؛ إذ قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ولم يكن فى نفوسهم تطلع إلى شىء سوى النصر، وإقامة الدين والدفاع عن حوزته، فكانت أرواحهم بهذا الإيمان مستعدة لقبول الإلهام من أرواح الملائكة والتقوىّ بالاتصال بها. أما فى يوم أُحد، فقد كان بعضهم فى أول القتال قريبًا من الافتتان بما كان من المنافقين، ومن ثم همت طائفتان منهم أن تفشلا، ولكن الله ثبتهما وباشرا القتال مع بقية المؤمنين حتى انتصروا وهزموا المشركين، ثم خرج بعضهم عن التقوى وخالفوا أمر الرسول (ﷺ) وطمعوا فى الغنيمة وتنازعوا فى الأمر ففشلوا وضعف استعداد أرواحهم، فلم ترتق إلى الاستمداد من أرواح الملائكة، فلم يكن لهم منهم مدد].

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾

لا تأخذوا فى الدَّين غير رءوس أموالكم، لا تزيدوا عليها ربًا، أى فائدة تتزايد كلما تأخر المدين فى الدفع فتتضاعف وتتراكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وخافوا عصيان الله ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ قال بعض الفقهاء: إن هذه هى المرحلة أو الخطوة التدريجية الثانية فى تحريم الربا، والأولى هى آية سورة الروم ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ (٣٩) ﴾ وقال الشوكانى: [ليس لتقييد النهى لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال (أى ليس النهى فقط عن ربا الأضعاف المضاعفة)، ولكنه جىء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التى (اعتادوها) فى الربا حتى يأخذ المرْبى أضعاف دينه].

* * *

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

وأطيعوا الله فى كل أوامره و اجتنبوا كل نواهيه، وأطيعوا الرسول فى كل ما يُبلغكم به عن ربه، لعل رحمات الله تتنزل عليكم ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ إلى مغفرة من ربكم بالتوبة، وسارعوا إلى الجنة التى سعتها السماوات والأرض، أعدها الله للذين يتقون ربهم ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ الذين بدلاً من أن يأخذوا الربا أضعافًا مضاعفة ينفقون فى سبيل الله، فى اليسر وفى العسر ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ إذا ما ظُلِمُوا فلا يتسرعون بالانتقام، ولكنهم يصبرون فيحبسون غضبهم عن الخلق، ومنهم من يفعل أفضل من ذلك، فهم ﴿ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ يعفون عمن ظلمهم فيرتفعون إلى درجة المحسنين ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾

من صفات المتقين أنهم إذا ارتكبوا فاحشة يعودون إلى الله ويستغفرونه، أو إذا قصروا فى طاعة أو إيمان لا يتمادون ولا يصرون على ذلك، بل سرعان ما يستغفرون الله، الذى لا يغفر الذنوب إلا هو. أولئك المتقون عملاً، وليس فقط قولاً، ينالون مغفرة ربهم وجناته التى تجرى من تحتها الأنهار.

* * *

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ قواعد سنها الله على الأمم ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فسيروا فى أماكن حضاراتهم وديارهم التى كان لها شأن فى زمانها، ثم كذب القوم برسل الله ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ هذه آثارهم تبين للناس زوال الدنيا، ويتعظ بذلك الذين يؤمنون بالله ويتقونه.

* * *

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)﴾

الخطاب موجه للمؤمنين بعد غزوة أُحد، ولكل المؤمنين بعد ذلك فى كل زمان ومكان. انتصر المسلمون فى بداية المعركة وفر المشركون، ولما رأى الرماة المرابطون على جبل أحد ليحموا ظهور المسلمين فرار الأعداء وتركهم لمتاعهم، اندفعوا هابطين إلى الغنائم ونسوا أمر رسول الله (ﷺ) بألا يتركوا مواقعهم مهما حدث، فانقض الكفار عليهم وأثخنوهم جرحًا وقتلاً، فنزلت هذه الآيات ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على من قُتل منكم، وثقوا فى أن الله جعل المؤمنين فوق الكافرين فى الدنيا والآخرة بمقاييسه الحق ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ إن يصيبكم الجرح والموت، فقد مس المشركين قرح مثله من قبل فى غزوة بدر ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فدورات النصر والهزيمة، وصعود وتدهور الجماعات والأمم والحضارات يصرفها الله بين الناس، تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ سبق شرح ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ فى الآية ١٤٣ من سورة البقرة، والمقصود هنا ليعلم الرسول (ﷺ) ومن معه من هم المؤمنون حقًا[1]، وليبلغ بعضهم درجة الشهادة فى سبيل الله

(١) ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ تكرر مثل هذا القول فى القرآن عدة مرات، والله هو ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ =

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يحب المشركين ولا المنافقين ولو أظفرهم بالنصر تارة ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ﴾ وليختبر ويطهر ويمحو الذنوب عن المؤمنين ويُهلك الكافرين ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ دخول الجنة ليس بالقول والتمنى، فلا بد من الابتلاء والتمحيص ليتميز المجاهدون فى سبيله والصابرون على جهاد الأعداء ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ ولكم تمنيتم الموت فى سبيل الله من قبل، فها هو الموت أمام أعينكم فى المعركة ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

عندما خالف الرماة الأوامر واندفعوا لجمع المغانم، اجتمع الكفار على رسول الله (ﷺ) وجرحوا وجهه الكريم وكسروا رباعيته ـ وهى السِّنُّ بين الثنيَّة والنَّاب ـ وأشاعوا أنه قد قتل،

= [الملك: ١٤]، فهل ينتظر الله حدوث الشىء حتى يعلمه كما يفيد ظاهر الآية؟ للمفسرين أقوال عديدة فى ذلك:

* قال الزمخشرى: [بمعنى ولما تجاهدوا؛ لأن العلم متعلق بالمعلوم، فنزل فى العلم منزلة نفى متعلقه (المتعلق به) لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله فى فلان خيراً، يريد (بقوله) ما فيه خير حتى يعلمه الله]، وقال مثل ذلك النسفى.

* وقال محمد عبده: [جرت عادة العرب فى لغتها أن تنسب إلى الرئيس الكبير ما يحدث بأمره وتدبيره. يقولون: فتح الأمير البلد، وقاتل الجيش. وكثيراً ما يقولون هذا، والأمير ليس واحداً من العاملين. فهو أسلوب معهود، إذا أريد إسناد الفعل إلى الجمهور أسندوه إلى المقدم فيهم. ولما كان الله ـ تعالى ـ وليّ الذين آمنوا، صح بحسب هذا الأسلوب العربى أن يذكر الفعل بصيغة الجمع التى تشمل المتكلم وغيره، وإن كان غيره هو المقصود بالفعل. فمعنى ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾: إلا ليعلم عبادى المؤمنون بإعلامى إياهم. وقد علم المؤمنون فى هذه الفتنة من هو الثابت على اتباع الرسول (ﷺ)، ومن هو المنافق. وكان المنافقون مع المؤمنين بحيث لا يُماز (لا يُعرف) أحدهم من الآخر لقيامهم جميعًا بأداء الأعمال الظاهرة المطلوبة. وهكذا كان سبحانه وتعالى يمحص ما فى القلوب بما يبتلى به الناس من الفتن ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت].

ويدخل فى هذا الأسلوب أيضًا مثل قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أى يعطى عباده المحتاجين، والله يكافئه عنهم إذ كانوا عاجزين].

* وهناك قول ثالث، تبينه آية سورة يونس ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (١٨) ﴾ فليس هناك ما لا يعلمه الله، والمقصود بنفى علم الله نفى وجود الشريك، فكذلك نفى العلم فى الآيتين ١٤٠، ١٤٢ المقصود به نفى العمل، وإثبات العلم مقصود به إثبات العمل.

فاهتز المسلمون، وانهار بعضهم حتى وسوس له الشيطان بالارتداد ما دام رسوله قد قتل، فنزلت الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ماتت من قبله جميع الرسل، وسيموت هو كما ماتوا ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أى رجعتم إلى الكفر، ومن يرجع إلى الكفر ويرتد عن الإسلام ﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

* * *

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾

تكرر آيات القرآن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بيده وحده آجال الناس، وأرزاقهم، ومنها هدايتهم، وبيده عزهم أو ذلهم، ويبين ذلك الحديث النبوى القائل: «اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك» رواه الترمذى. والآية هنا تبين أن العمل للدنيا يؤتى ثماره فيها، والعمل للآخرة يؤتى ثماره فيها، طبقًا للمشيئة الإلهية، والمؤمنون يجمعون فى مقاصد أعمالهم ثوابى الدنيا والآخرة، فهم يقولون ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

* * *

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ كم من نبى ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ قاتل معه ربانيون، نسبة إلى الرب؛ أى أتباع الأنبياء المخلصون لله ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ فما ضعفوا مما أصابهم فى القتال ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا، ولا رضوا بالذل والمهانة ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فى البأساء والضراء وحين البأس، الذين يتضرعون إلى الله قائلين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا فى طاعتك، وثبت أقدامنا فى القتال فى سبيلك، وعلى الإيمان بك، وتصديق الإيمان بالعمل ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال الطبرى: [إنما هذا (القول) تأنيب من الله ـ عز وجل ـ لعباده الذين فروا عن العدو يوم أحد

وتركوا قتالهم، وتأديب لهم، فهلا فعلتم إذ قيل لكم: قُتل نبيكم، كما فعل هؤلاء الربيون؟] فكان جزاؤهم ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾

يحذر الله المؤمنين أن الكافرين يعملون على أن يردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، فلا تطيعوهم وإلا خسرتم الدنيا والآخرة، ولكن أطيعوا الله؛ لأنه هو نعم المولى ونعم النصير، والآية ليست حصرًا على المسلمين فى عصر الرسالة، ولكنها مستمرة، حتى اليوم، وخصوصًا اليوم، وإلى ما يعلمه الله فى الغيب.

* * *

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾

قال الألوسى: [كان الإشراك سببًا لإلقاء الرعب] أى أن تلك الآلهة سواء كانت أصنامًا، أو أمجادًا، أو مكاسب دنيوية، تسبب الرعب القلبى لمن يسعى وراءها، مهما كانت قوته وثروته الدنيوية، وعلينا أن نتذكر دائمًا قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ومصير أولئك الكفار جهنم وبئس مستقر الظالمين.

* * *

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾

تحكى الآية كيف سارت المعركة فى أحد. ففى بدايتها؛ حقق المسلمون نصرًا على الكفار برغم قلة عددهم، وبدأت قريش بالهرب والانسحاب من ميدان المعركة تاركة الغنائم، ثم ترك الرماة مواقعهم التى كانوا يحمون منها ظهور المسلمين، فالتف خالد بن الوليد ومن معه على المسلمين من خلفهم، ليتآكل النصر، ويتشتت المسلمون.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعده بالنصر فى أُحُد ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم فى بداية المعركة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى إذا

ضعفتم أمام الغنائم وتنازع الرماة هل يبقون كما أمرهم النبى (ﷺ) أم يهبطون من مواقعهم على جبل أحد ليشاركوا فى الغنائم؟ ثم عصى أكثرهم وتركوا مواقعهم سعيًا وراء الغنائم، وهنا صار قتال بعضهم فى سبيل الدنيا، وبعضهم فى سبيل الآخرة، فلم يعودوا جديرين بوعد الله بالنصر ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ فمن عصى الرسول (ﷺ) وهبط وراء المغانم إنما يريد الدنيا، ومن بقى من الرماة، ومن صمد من غيرهم، فهو يريد الآخرة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم شغلكم عن قتالهم ليمتحن صبركم وجلدكم فى طاعة الله ورسوله، ثم عفا الله بفضله عن الرماة وجميع المقاتلين المؤمنين.

* * *

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ إذ تفرون من القتال، سواء كان ذلك على الأرض، الصعيد، أو صُعودًا على الجبل ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ ولا تلتفون لأحد ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ وينادى عليكم رسول الله (ﷺ) من خلف ظهوركم أن اثبتوا وقاتلوا، وكان معه نفر يسير من الذين ثبتوا ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ جزاكم غمًا على غم الهزيمة والفرار؛ لكى لا تحزنوا على ما فاتكم من المغانم ولا ما أصابكم من قتل وجرح بالمقارنة من حزنكم على الفرار وترك رسول الله (ﷺ) ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بما يفعل كلٌ منكم ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ من لطف الله ورحمته بالمؤمنين أن أنزل الأمن والنعاس على طائفة من المقاتلين المستبسلين، وبعد النعاس القصير، انتبهوا وهم فى حالة نفسية جديدة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قد استغرقتهم أنفسهم وهم المنافقون؛ إذ أصابهم القلق والجزع على أرواحهم ومستقبلهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يظنون أن الله بعد أن خلق الخلق تركهم وشأنهم، فلا تكليف ولا بعث ولا حساب

﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ هل لنا رأى فيما يحدث أو تأثير؟ وهل لنا من مصلحة فى ذلك؟ قل لهم يا محمد إن الأمر كله، فى هذا القتال وفى غيره، لله ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ يكتمون فى أنفسهم مالا يظهرون لك، سواء كان ذلك ظنون السوء، أو تخطيطات وأفعال السوء ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أى لو كان الأمر بيدنا ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ أى ما قتلنا فى هذه المعركة. قل يا محمد لهم ﴿ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ لو كنتم آمنين فى منازلكم، وكتب الله عليكم القتل، لبرز من كتب عليه القتل لمقتله ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ليختبر الله ما تخفونه من إخلاص أو نفاق ليكشف ويميز ما تكنه القلوب، وفى جميع أحوالكم ﴿ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾

إن الذين تركوا أماكنهم التى حددها رسول الله (ﷺ) طمعًا فى الغنائم، والذين فروا من القتال ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ نجح الشيطان فى الإيقاع بهم فى زلل المعصية، ورغم ذلك ﴿ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ قال المراغى: [فى هذا إيحاء إلى سنة من سنن الله فى أخلاق البشر وأعمالهم، وهى أن المصائب التى تعرض لهم فى خاصة أنفسهم أو فى شئونهم العامة، إنما هى آثار طبيعية لبعض أعمالهم، ولكن الله قد يعفو].

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) ﴾

يا أيها المؤمنون، لا تكونوا مثل الكفار الذين يقولون فى المؤمنين إذا سافروا فى طاعة الله ورسوله، أو الغزو فى سبيل الله، لو أطاعونا ومكثوا معنا ما تعرضوا للموت أو القتل، ليجعلهم الله يتحسرون فى قلوبهم على أنهم لم يخرجوا معهم، والله وحده هو المحيى والمميت؛ فقد يعيش المسافر والمحارب، ويموت الجالس فى بيته ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

* * *

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

ولئن قتلتم أو متم فى سبيل الله دون قتال، لمغفرة ورحمة تنالونها عند لقاء الله خير من الدنيا وما فيها، وسواء متم أو قتلتم ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

* * *

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾

بفضل الله ورحمته، جعلك لينًا هينًا، فلم تعنفهم ولم تقسُ عليهم، ولو كنت جافىَ المعاملة وقاسى القلب لتفرقوا من حولك ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ كما عفا الله عنهم، واطلب لهم الغفران ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ استشرهم ليشتركوا فى إدارة أمورهم فيما لم ينزل عليك فيه وحى، وهذا الأمر بالمشاورة هو أصل فى الإسلام، خاصة فى الأمور الهامة مثل القتال. وقد نزل رسول الله وخاتم النبيين (ﷺ)، صاحب الوحى، على أمر صحابته فى معركة بدر، وفى معركة أحد، وفى معركة الخندق التى جاءت الأحزاب فيها لاستئصال المسلمين.

وعن عائشة وأبى هريرة (رضى الله عنهما): لم يكن هناك من هو أكثر استشارة لأصحابه من النبى (ﷺ)، وقال قتادة: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم، وروى مرفوعًا. وقال ابن عطية: [لا خلاف فى وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين] ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ إذا درست وشاورت وتفكرت ثم قررت التحرك، فتوكل على الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

* * *

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾

على المؤمن أن يكون على يقين أن النصر لا يأتى إلا من عند الله، فإذا ما أذن الله بالنصر ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ كما حدث يوم بدر، وإن قدر عليكم الخذلان لعدم اتخاذكم بأسباب النصر وعصيانكم الرسول (ﷺ) كيوم أحد، فمن يقدر على نصركم؟ وعلى الله فليعتمد المؤمنون، وبه يكتفون.

* * *

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾

ما كان لنبى أن يستأثر بغنيمة له أو لخاصته، فى حرب أو سلم، ومن يفعل ذلك من البشر، يأتى على أعين الناس بما غله يوم الحساب، ويُعاقب عليه بالعدل الإلهى.

* * *

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) ﴾

أفمن سار فى سبيل مرضاة الله فعمل الصالحات كمن جاء فى الآخرة بسخط الله وغضبه بسبب ذنوبه ومعاصيه، فألقى به فى نار جهنم ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ الناس فى مقامات مختلفة حسب أعمالهم ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

لقد أنعم الله على المؤمنين، فقد بعث إليهم رسولاً من أنفسهم، يتكلم بلسانهم، ويقرأ عليهم آيات الله، ويطهرهم من العيوب والرذائل، ويعلمهم القرآن والحكمة ـ وكما سبق وبينا، الحكمة هى الإصابة فى تقدير الأمور، والإصابة فى التصرف فيها، وعندما تقرن بالكتاب كما فى الآية، يقول الشافعى وأكثر المفسرين إن المقصود بها السنة ـ مع الأخذ فى الاعتبار أن فى السنة ما هو أكثر من ذلك، مثل الوحى له بأوقات الصلاة وهيئاتها، والوحى له بمناسك الحج، وغير ذلك الكثير، فالسنة أوسع من الحكمة بما فيها من وحى، وكذلك بما فيها من تكليف بإبلاغ الرسالة، فقد يكون هناك حكيم منعزل عن الناس ـ وإن كانوا من قبل مجيئه إليهم ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فى ظلمات الشرك بالله، وما يترتب على ذلك من ظلم للناس ولأنفسهم.

* * *

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) ﴾

لما أصابتكم مصيبة بقتل سبعين منكم يوم أُحد، قد أصبتم مثليها يوم بدر؛ إذ قتلتم من المشركين سبعين وأسرتم سبعين، قلتم كيف يكون هذا القتل ونحن مسلمون ورسول الله فينا؟ قل لهم يا محمد ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أنتم الذين خالفتم رسول الله (ﷺ) وتركتم أماكنكم في القتال، وشغلكم جمع الغنائم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينصر من يشاء ويمنع النصر عمن يشاء بقدرته وحكمته ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وما أصابكم من جرح وقتل يوم أُحد، تم بقضاء الله وقدره، وليظهر ويفرز المؤمنين من المنافقين.

* * *

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

نزلت الآيتان في عبد الله بن أبيّ وأتباعه وأمثالهم من المنافقين حين رجعوا من الطريق إلى القتال يوم أُحُد ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ أو حتى قاتلوا دفاعًا عن أموالكم وأنفسكم ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو كنا متأكدين من أنكم ستقاتلون حقًا لذهبنا معكم، فأصبحوا بما قالوا أقرب إلى الكفر من الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه صفة المنافقين، والله أعلم بما يضمرونه في قلوبهم، الذين قالوا لإخوانهم من المنافقين وهم قاعدون عن القتال: لو أنهم أطاعونا وعادوا إلى المدينة ما أصابهم الموت ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ قل لهم يا محمد ادفعوا عن أنفسكم الموت بأي شكل يأتيكم وفي أي مكان وزمان ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

* * *

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾

إن الذين استشهدوا في سبيل الله ليسوا من الأموات، بل هم أحياء عند ربهم ـ حياة خاصة رفيعة تليق بالشهداء لا يعلمها إلا الله خالق الموت والحياة ـ تفرح قلوبهم بفضل الله عليهم بالشهادة، ويرجون أن ينال من بعدهم من المؤمنين، الذين يسلكون سبيل الاستشهاد مثلهم،

نفس الدرجة من الفضل؛ حيث لا خوف ولا حزن، ويستبشرون بنعمة الله وفضله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

* * *

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾

أولئك المؤمنون الذين لبوا دعوة رسول الله (ﷺ) إلى استئناف القتال بعد الذى أصابهم يوم أُحُد عندما هدد أبو سفيان بالعودة لاستئصال الرسول (ﷺ) وصحابته المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾ بالصمود والرباط فى سبيل الله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

أرسل أبو سفيان إلى الرسول (ﷺ) والمؤمنين فى المدينة بأنهم سيعودون لاستئصالهم بجموع أكبر، فما أدى ذلك إلا إلى ازدياد إيمانهم، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فما كان من أبى سفيان ومن معه إلا أن رجعوا إلى مكة، وعاد المؤمنون إلى المدينة بعد أن خرجوا ثانية لأحد دون قتال جديد، وفى رضوان من الله، لا يخافون إلا إياه.

* * *

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾

﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ قال بعض المفسرين: إنهم المنافقون الذين ارتدوا، وقال البعض الآخر: إنهم الكفار، وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ عن المؤمنين ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، وقال آخرون: هم من اليهود الذين يسارعون فى محاربة الإسلام والمسلمين،

ويمكن أن يكون المقصود كل أولئك. وكان النبى (ﷺ) يحزن حزنًا شديدًا على ذلك، فنزلت الآيات وبينت أن الله يمد لهم فى متاع الدنيا ليزداد فسقهم، ومن ثم عقابهم فى الآخرة.

* * *

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) ﴾

ما كان الله ليترك المؤمنين بالقول حتى يميز المؤمنين قولاً عملاً، صدقًا وحقًا عن المنافقين، وما كان الله ليطلعكم بالقول على ما سيكون فى الغيب من إيمان أحد بعينه أو نفاقه أو ارتداده وإنما يبلوكم بالأحداث التى تبلغون بها الدرجات العلا أو تنحطون بها أسفل سافلين، قال الزمخشرى: [عن السدى، قال الكافرون إن كان محمد صادقًا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر، فنزلت الآية] والله يختار من يشاء لحمل الرسالة؛ لأن ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾

المال فى الإسلام هو مال الله، ونحن مستخلفون فيه، وإن الله ناظر إلى تصرفنا فيه، هل سنخرج حق الله فيه أم نظن أننا أحرار فى إنفاقه وأننا كسبناه بعلمنا، كما قال قارون؟ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بما رزقهم الله أن ذلك خير لهم، بل هو الشر بعينه؛ لأن الله لن يبارك فيه، وفى الآخرة سيلتف كالطوق حول عنق الواحد منهم ليخنقه ببخله فى الدنيا ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فإلى الله تعود السماوات والأرض ومن عليها، فلماذا البخل إذن؟ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ويمكن أن نفهم الآية على أنها تتحدث أيضًا عن العلم برسالة خاتم النبيين (ﷺ) الذى يكتمه أحبار أهل الكتاب.

* * *

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾

عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فنزلت هذه الآية. سمع الله قولهم وسجله عليهم، كما سجل عليهم من قبل قتل أنبيائهم ظلمًا وزورًا، ولذا يقول الله لهم يوم القيامة: ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ وعقاب الله لا يكون إلا عدلاً ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾.

* * *

﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾

زعم بعض اليهود أن الله قد عهد إليهم ألا يصدقوا أى رسول إلا إذا قدَّم قربانًا، فتنزل نار من السماء تلتهمه، فقل لهم يا محمد ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وإن كذبوك يا محمد فلا تحزن؛ فقد كذبوا رسلاً من قبلك جاءوهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج والبراهين ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ جمع زبور أى الكتب السماوية ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ هل هو التوراة؟ أم الإنجيل؟ أم الاثنان؟ فهناك من بنى إسرائيل من كذب موسى (عليه السلام) ومنهم من كذب عيسى (عليه السلام)، ومنهم من كذب بالاثنين، وبداود (عليه السلام).

* * *

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾

الموت مصير كل حى، وكل نفس ستنال جزاء أعمالها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فمن أبعد عن النار وأدخل الجنة فهذا هو الفوز المبين، والعاقل البصير لا يغره متاع الدنيا.

* * *

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾

لسوف تختبرون أيها المؤمنون فى أموالكم بالنقصان، وفى أنفسكم بالجراح والقتل، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى ومن المشركين أقوالاً مؤذية كثيرة، محاولين أن يفتنوكم عن دينكم، فاصبروا وداوموا على تقوى الله، فإن ذلك من مقتضيات الحياة.

* * *

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾

وإذا أخذ الله الميثاق من علماء اليهود والنصارى أن يبينوا الكتاب للناس ولا يكتموا ما به، فتركوا الكثير من نصوصه الأصلية، وبلّغوا وعلموا أتباعهم ما أرادوا به خدمة مصالحهم وتعزيز كهنوتهم ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ولا تحسب يا محمد الذين يفرحون بما أتاهم الله من كتابه، ويحبون أن يحمدهم أتباعهم على أنهم يهدونهم إلى طريق الله، الأمر الذى لا يفعلونه، فلا تحسب أنهم ﴿ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ سينجون من عذاب الله ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) ﴾

يدعو القرآن الناس للنظر فى آيات الله فى الكون، فى السماوات والأرض، فى النجوم والكواكب، فى السحاب والأمطار، فى الصحارى والوديان والبحار والأنهار، وفى الزرع المختلف لونه وشكله وحجمه، ورائحته وطعمه، وفى الإنسان نفسه كيف نشأ من نطفة إلى أن صار يجادل خالقه، ومنهم من يهتدى ومنهم من يضل، وكيف قامت الأمم ثم أصبحت أحاديث، إن فى كل ذلك آيات لأولى العقول، أولئك الذين يذكرون الله دائمًا، وفى كل أحوالهم ﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ ويتدبرون بديع صنع الله، وينكرون أن يكون كل ذلك عبثًا، فكيف يعمل هذ الكون بنظامه المحكم المتقن، ويجىء إليه الناس، ثم يموتون، وينتهى الأمر؟ لماذا جاءوا؟ ولماذا فطروا على الخير الذى يجعلهم يتمنعون عن الشرور، فينجح فى ذلك بعضهم ويفشل البعض الآخر؟ لماذا يطمئنون ويفرحون بفعل الخير، ويندمون ويلومون أنفسهم على فعل الشر؟ لماذا يفزعون إلى الله عندما تحل بهم الكروب ثم يطغون ويظلمون إذا استغنوا؟ أصحاب العقول أولئك يتضرعون إلى ربهم قائلين ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ما خلقت الكون ومن فيه عبثًا ولهوًا، بل خلقته بالحق؛ ليهدى البشر إليك، أنت الإله الحق

والرب الحق ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ لا تجعلها تمسنا لا من قريب ولا من بعيد؛ لأن الذى تقضى عليه بدخول جهنم ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أهنته وفضحته أمام الخلق يوم القيامة وأهلكته بالنار ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وما لأولئك الذين ظلموا أنفسهم وخسروها أعوان ينتصرون لهم.

* * *

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾

ربنا إننا سمعنا محمداً (ﷺ) ينادى بالإيمان ﴿فَآمَنَّا﴾ فاغفر اللهم لنا ذنوبنا الكبائر منها والصغائر ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ وأدخلنا فى جماعة الأبرار، والبار هو كثير الخير والإحسان وعمل البر ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ربنا آتنا ما وعدت المؤمنين به على ألسنة رسلك ﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا تفضحنا أمام الخلق يوم القيامة ﴿إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

* * *

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾

بعد هذا الدعاء من المؤمنين العاملين بإيمانهم، استجاب لهم ربهم وبشرهم بأنه لا يضيع عمل أحد، سواء أكان ذكراً أم أنثى، فجميع الذين هاجروا فى سبيل الله، من مكة إلى المدينة، أو غير ذلك من أنواع الهجرة فى سبيل الله بعد عصر النبوة، فارين بدينهم، وأوذوا فى سبيل الله وقاتلوا وقتلوا، كتب الله على نفسه محو سيئاتهم، وأن يجزيهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ثواباً من عند الله، والله وحده ﴿عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

* * *

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

لا يغرك يا محمد، والقول للمؤمنين فى عصر الرسالة وبعدها، تقلب الكفار فى متاع الدنيا، سواء بالمال أو الجاه أو بالنفوذ والقوة أو غير ذلك؛ لأن ذلك إلى زوال، ثم يستقروا فى

جهنم، وبئس المنزل والمقام. لكن الذين آمنوا واتقوا تنتظرهم ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حياة بلا موت ونعيم مقيم ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ سكنًا من عند الله، وعنده الخير للأبرار.

* * *

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾

من اليهود والنصارى من يؤمن بالله، ويؤمن بما أنزل على محمد (ﷺ)، وما أنزل على أنبيائه السابقين، يخشع لله ويتقيه، فلا يشترى بآياته متاع الدنيا القليل من جاه أو مال أو غيره، وأولئك لهم ثوابهم عند الله سريع الحساب، ودائمًا يشير القرآن الكريم لهذه الطائفة الصالحة من اليهود والنصارى، وعلينا الالتفات لذلك والاهتمام به وتقديره كما يجب، وألا نعتبرهم كلهم على قلب رجل واحد.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

نداء ربانى إلى الأمة المؤمنة ﴿اصْبِرُوا﴾ فى جميع الأمور، كأذى الكفار والمشركين وأهل الكتاب ومصائب الدنيا، واصبروا على أهوائكم ونفوسكم وإغراءات الشيطان، وعلى فروض العبادات من إتيان الطاعات واجتناب النواهى ﴿وَصَابِرُوا﴾ من المصابرة، وهى مبالغة فى شدة الصبر ﴿وَرَابِطُوا﴾ لازموا الثغور لحماية أنفسكم من أعدائكم، وفى الحديث «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» رواه البخارى، وجاء أيضًا فى الحديث أن الرباط «هو انتظار الصلاة بعد الصلاة» رواه مسلم، فكأن الرباط يشمل كل أوجه الحياة من معاملات إلى عبادات، من جهاد الظلم والأعداء إلى جهاد النفس ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالفوز فى الدنيا والآخرة.

* * *